نصوص مسيلمة الكذّاب النثرية "قراءة تفكيكية"

المدرس الدكتور
جاسم فريح الترابي
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

توطئة:

التفكيكية واحدة من المناهج النقديّة الحديثة، ولعلَّ أفضل ترجمة لكلمة التفكيكيّة هو مصطلح التقويضية[١]، وهي ترجمة موفقة؛ لأنَّ مفهوم التفكيكية يحاول تقويض الصرح الداخلي للنّص بشفرات تحطيمية لكل ما هو حقيقة وثبات، وهو فكر يحاول تقويض العقلانية والكليّات المعرفية[٢]، وقد حدّد (كاموف) التفكيك بقوله: (التفكيك هو أن تنتهي إلى عمل لا شيء)[٣]، وحدده (لاينج) بقوله "(التفكيك هو هفوة نقدية)[٤]، أما (هابرماس) فقد وصف التفكيك بأنّه (عملٌ تعسفيٌّ)[٥]، وحدّده (بورديو) بقوله: (التفكيك لعبة)[٦]، وحدده (هاريسون) بقوله: (التفكيك يستلزم تبعات عبثية)[٧].

وهو مجزرة إرهابية لكل ما هو ثابت، يحاول أن يلوي عنق النّصوص بغير السّكين المعرفي، يلجأ إلى خيارات منفلتة لا تركن إلى عماد تحليلي، يحاول أن يجدد اللغة بمزاجات مبالغة، وهو نقدٌ ممل؛ لأنّه يقول الشيء عن نفسه، التفكيك له أجندة خاصة لتحطيم كل ما هو مقدس فهو يقرأ النصوص بمنظار التحرر من القيود، لا يعرف أن يلتجأ إلى مرجعية ثقافية معينة؛ لأنّه دوما ملاحق بالنقد، فهو نقد المنقود[٨].

ونشأت التفكيكية عن "ما بعد البنيوية" في أواخر الستينات على وجه التقريب. وترتبط التفكيكية أو التقوّيض باسم دريدا، الذي عرف بتعدد جوانبه وخصب اهتماماته، فهو فيلسوف وقارئ نصوص من التراث الفلسفي الغربي[٩]. ولقد وجه هذا الفيلسوف انتقادا حاسما للفكر البنيوي، فلقد ذهب إلى أن فكرة "البنيوية" كانت تفترض دائما "مركزا" من نوع ما للمعنى حتى في البنيوية، هذا المركز يحكم البنية، ولكنه هو نفسه ليس موضوعا للتحليل البنيوي[١٠].

وذهب دريدا إلى أنَّ البشر يرغبون في مركز؛ لأنَّ المركز يضمن لهم الوجود من حيث هو حضور، فنحن نفكر على سبيل المثال في حياتنا العقلية والمادية على أنها مرتكزة حول "أنا" وهذه الأنا هي مبدأ الوحدة الذي تقوم عليه بنية كل ما يدور في فضائها(١١).

يرى دريدا أنَّ النّص ليس معرضاً للتناقضات، ومحوراً للتوتر والتعارض وحيز للتبعثر والتشتت وذلك حيث يولد دوماً عن القراءة تفكك البنى وانفجار المعنى وتشظي الهوية(١٢).

إنّ تفكيكية دريدا كممارسة نقدية تفكك النّص لتكشف أن ما يبدو عملا متناسقا وبلا تناقضات هو بناء من الاستراتيجيات والمناورات البلاغية. إن فضح ذلك البناء ينسف الافتراض بوجود معنى متماسك غير متناقض ومفهومه يمكن تفسيره بشكل واضح ويؤكد دريدا أهمية تحطيم كل الجاهز والمؤطر والمشكل والنظامي سواء كان نظريا، أم ثقافيا، أم مؤسسيا. ويلاحظ دريدا على النصوص أنها ليست متجانسة دائما ويحدد مطلبه من القراءة بقوله ("ما يهمني في القراءات التي أحاول إقامتها هو ليس النقد في الخارج، وإنما الاستقرار والتموضع في البنية غير المتجانسة للنصّ، والعثور على توترات، أو تناقضات داخلية، يقرأ النصّ من خلالها نفسه، ويفكك نفسه [...] أن يفكك النصّ نفسه فهذا يعني أنه يتبع حركة مرجعية ذاتية حركة نصّ لا يرجع إلاّ إلى نفسه، ولكن هناك في النّص قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته)(١٣).

هدف البحث:

تحاول هذه الدراسة أن تمارس تطبيقاً للمنهج التفكيكي على واحدة من الشخصيات المثيرة في حضارتنا النصيّة، وهي شخصية مسيلمة الكذاب. وتعتمد الدراسة على المنهج الإجرائي الذي يحاول تفكيك النصوص المنسوبة لمسيلمة الكذاب بغية الكشف عن مكوناتها الإشارية ومضمراتها النسقية. الهدف الأساسي من التفكيك للنص هو تصديع بنية الخطاب وتفحص ما تخفيه من شبكة دلالية. أو هو بصيغة أخرى: تفكيك الخطابات والنظم الفكرية وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها طويلًا إلى الإلمام بالبؤر الأساسية المطمورة فيها، ثم إعادة الصياغة تبعًا للرؤية التي يراها المفكك بعد ذلك، هنا تبدو خطورة استخدام نظرية تفكيك النص عند تطبيقها على النصوص الإسلامية في القرآن والسنة وغيرها من الكتب والنصوص، حيث يتم هدم بنية النص وإعادة صياغته حسب رؤية

القارئ حتى وإن كان نصًا مقدسًا للقرآن، مما يعطي الفرصة للتلاعب وتحريف النص الأصلي وإضافة الرؤية الشخصية للقارئ ـ المتغيرة دائمًا ـ على النص الثابت بالوحي، وهناك دلالات أخرى ترتبط بمفهوم التفكيك أهمها: عدم التمركز حول المعنى الأصلي للنص والدعوة إلى الاختلاف في المعنى وعدم ثباته، ونسبية الحقائق وتغيرها من شخص لآخر ومن قراءة لأخرى، يرى دريدا أنَّ النص غير منجز ما دامت قراءته متواصلة... بل إنَّه في دلالته يتضاعف مثل المتوالية الرياضية تبعًا لتعدد القراءات.

الدراسات السابقة:

١- مزاعم مسيلمة الكذاب في معارضة آيات الكتاب، دراسة تحليلية نقدية، محسن الخالدي، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، فلسطين، العدد ٢٥، ٢٠٠١م.
٢- معارضة القرآن في المعيار الأسلوبي، د. مشكور العوادي، مجلة دراسات الكوفة، العدد ٦، ٢٠٠٧م.

منهج الدراسة:

إنَّ المنهج الذي يتناسب مع هذا النوع من الدراسات. هو (المنهج الوصفي التحليلي النقدي)، الذي يقوم على:

١- وصف الظاهرة وتحليلها.

٢- التقعيد للظاهرة أو اقتراح البديل.

٣- نقد الظاهرة.

٤- إصدار الأحكام التي تبيّن قيمتها، وذلك لأنَّ الوصف هو عماد الدّراسات اللغويّة الحديثة، والذي يُعنى بوصف بنية اللغة وبيان وظيفتها الإبلاغية في الوقت نفسه، انطلاقاً من أنَّ اللغة نظام شامل يظهر على هيأة أنظمة صغرى يؤدي التفاعل بينها إلى تحريك جهاز اللغة.

مسيلمة الكذاب في سطور:

ذاك الذي أدعى أنّه نبي قومه، وتقول مصادر التأريخ أنَّه كان يصانع كل إنسان

ويتألّفه، وكان يداهن النّاس بأسلوبه وتنسكه الذي أغوى به أبناء قومه، وكان في ضمن وفد بني حنيفة الذي قدم إلى المدينة سنة تسع للهجرة، وكان مسيلمة يرى في نفسه إمارة الرئاسة، وكان مُتجلباً بثيابه الا يراه الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ جالساً بين أصحابه معه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات، فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺوهم يسترونه بالثياب كلّمه وسأله، فقال له الرّسول ﷺ: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه. وكان قد سأله تشريكه في أمر الرسالة(١٤). ثم انصرفوا، فلمّا انتهوا الى اليمامة ارتدَّ، وتنبّأ وتكذّب لهم، وقال: إنّي أشركت في الأمر مع محمد، ثمّ جعل يسجع لهم الأساجيع، ويمكن عرض بعض نصوص مسيلمة على النحو الآتي وقراءتها من البُعد التفكيكي:

النص الأول (الضفدع):

((يا ضفدع بنت ضفدعين. نقي كم تنقين. أعلاك في الماء وذنبك في الطين، لا الماء تكدرين. ولا الشارب تمنعين.)(١٥). قال أبو عمرو والجاحظ (ت٢٥٥هـ) في هذا النّص: (ولا أدري ما هيّج مُسيلمة على ذكرها ولِم ساء رأيه فيها حتّى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه)(١٦)، هذا التساؤل والاستغراب الذي أثاره أديب مثل الجاحظ يفتح مسارات أخرى للبحث، وهي ما المسوغ الذي دعا مسيلمة لذكر الضفدعة بهذا الوصف؟ ولماذا ساء رأيه فيها؟ وهل غاب عن ذهن مسيلمة الذي بَسَطَ نفوذه على أقوام أقحاح شربت منهم الفصاحة حتى الثمالة أنَّ خطابه لهم بهذا الأسلوب الفج يكون مدعاة للسخرية منه والنفور من كلماته، وتأييد دعوته البكر؟ وتلك الاستفهامات بؤرة للتشكيك بهذا النص الواهي المرصع بألفاظ سوقية، ومعان مبتذلة، ونمط سخيف يستهجنه لمن كان له أدنى معرفة بأساليب الكلام وفنون العرب في كلامها.

لذلك شدّد الخطابي النّكير على قولهِ في الضّفدع بالقول: (أمّا قول مسيلمة في الضّفدع فمعلومٌ أنّه كلام خال من كل فائدة، ولا لفظه صحيح، ولا معناه مستقيم، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة، وإنَّما تكلف هذا الكلام الغث لأجلِ ما فيه من السّجع، والسّاجع عادته أنْ يجعل المعاني تابعة لسجعه ولا يبالي بما تكلّم به إذا استوت أساجيعه واطّردت)(١٧).

مما حدا بمحيي الدّين الدّرويش إلى القول: (بل نرجّح أنّه من تخيّل القصاص المتأخرين، فمن هذا الكلام المتهافت الذي نُسب إلى مسيلمة أنّه كان يقول (يا ضفدع بنت ضفدعين)... وواضح تماماً أنّ هذا الهراء ليس من لغة الجاهليين في شيء)[١٨].

ويستفاد مما تقدّم أنَّ إعرابياً مثل مسيلمة شَرِبَ الفصاحة بلبن أمة يرسل مثل هذا الكلام الذي تحفه التفاهة من كل جانب. فالضفدعة ابنة ضفدعين كمن يقول إنسان ابن انسانين! ويخاطب الضفدعة بأنَّ أعلاها في الماء وأسفلها في الطين، وهذه الضفدعة لا تستطيع أن تكدر الماء، ولا تمنع الشارب من أن يشرب الماء، هذا فحوى النص، ولو نظرنا إلى النص من البُعد الأسطوري فأنَّ إشارته إلى الضفدع بالذات، وهو حيوان يتكاثر في الواحات ومناطق توافر المياه. وذكر مسيلمة له يُعدُّ أمراً محيراً، لأنَّه اختار حيوانًا لا قيمة له عند سكان اليمامة في القرن السابع. إلا أنَّ الأمر لا يخلو من أساس أسطوري. فالضفدع حيوان برمائي كان من سلسلة الحيوانات المقدسة عند الفراعنة القدماء. وفي الأسطورة الشعبية المصرية فإن الضفدع تردد عبارات معينة في صياحها ذات مدلول ديني. ويستعمل دم الضفدع في مناسبات طقوسية في مصر القديمة[١٩].

ولو نظرنا الى النّص من البُعد التفكيكي، وقراءته من الأفق الضيقة للتّفكيكية فأننا نرى نصاً منفصلاً عن لحظة الواقع، فأي تخاطب يمكن أن يتم بين مدعي للنبوة وضفدعة في جو تسوده رغبة الأتباع في تلقي كلمات النبي الجديد بالقبول الحسن، وأصبحت كلماته تلك سُبةً له بين أعداءه فضلاً عن أنصاره ومريديه، فهو يخاطب الضفدع خطاباً حمولته المعرفية أنَّ يضع من أمرها، ويحط من شأنها، والضفدع مخلوق ضعيف لا يتعالى ولا يتكبر؛ فخطابه بهذا لا يطابق حاله، ومن شرط البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وهو في المقطع الثانية لا يأتي من دقائق القدرة ما يتعالى إدراكه عن البشر كما قال تعالى في القرآن الكريم ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[٢٠].

إنَّ المنهج التفكيكي يمكن أنْ يزيّف هذه المعارضات مستنداً إلى أمور معنوية دون النظر مطلقاً إلى الأسلوب وتهافته، فهو يرد هذه المعارضة؛ لأن الخطاب فيها غير مطابق لمقتضى الحال، ويرد الثانية؛ لأنَّ ما جاء فيها ليس من دقائق القدرة، ومع إن الأمر لا تقتصر على

الناحية المعنوية بل لعل أظهر ما في هذه المعارضات من ضعف هو ركاكة الأسلوب وسخفه، مع ذلك فإن خطاب الضفدع مطابق لمقتضى الحال، لأنَّ قوله (نقي ما تنقين) معناه ارفعي صوتك ما شئت. فإنك لا تستطيعين وراء هذا التصويت الذي يشعر بالجلبة والضوضاء والعظمة ليس وراءهم ما يمكن أن يكون لهم من أثر من تكدير الماء أو منع الشاربين.

هذا، فان غَلبة الظن أنَّ هذه المعارضات وأشباهها من اختلاق الرواة، وتفكهات أصحاب القصص، وأضاحيك السُّمار في المجالس والمجتمعات، وإن العرب انقطعوا عن المعارضات حقها وباطلها، وكيف يكون مسيلمة أو غيره من أعراب البادية ينزل إلى هذا المستوى، ويمخرق على قومه وهم فصحاء بلغاء بهذا الهراء، ويدلل على ذلك قول الجاحظ عن انقطاع العرب عن المعارضة: (ولم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، فلو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه، ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقارب وناقض)[٢١] وهذا - ولا شك - نص وثيق صريح في أنَّ شيئاً من هذه المعارضات لم يكن وصل إلى علم الجاحظ، وهو ما هو، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كل هذه المعارضات من التهافت وضعف التأليف بحيث يستحيل صدورها من عربي بله عربي يقول فيه المرحوم مصطفى صادق الرافعي إنه أفصح من المتنبي، وذلك حيث يقول في كتابه إعجاز القرآن (وما المتنبي بأفصح عربية من العنس ولا مسيلمة)[٢٢] على أنَّ مما رُوي للمتنبي مما قالوا إنّه عارض به القرآن أقول من هذا ما يشبه أن يكون كلاماً مثل قوله (والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي إخطار، امضي على سننك، وأقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه، وضل عن سبيله)[٢٣] فأين من هذا ما يلصقونه بمسيلمة؟

٢- النص الثاني (النساء).

(إنّ الله خلق النساء أفراجاً، وجعل الرجال لهنّ أزواجاً، فنولج فيهنّ الغراميل إيلاجاً... فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً)[٢٤]، هذا النص من النصوص المثيرة الذي استعملته الماكنة الإعلاميّة الإسلاميّة، لضرب مدعي النبوة مسيلمة الكذاب، وهذا النص الذي ترويه كتب التأريخ يقال إنَّ مسيلمة دعا سجاح التميمية[٢٥] وتفسير اسمها" المستقيمة" وتكنّى بأم صادر، قد جاهرت أيضاً بالنبوّة واتّخذت مؤذّناً هو شبث بن ربعي يؤذّن فيقول: "أشهد أنّ

سجاح نبيّة الله" واستمالت الكثير من القبائل بالإضافة إلى تميم وأخوالها في تغلب وغيرهم في ربيعة وحتى استمالت بقوّة شخصيّتها أحياء من النصارى[٢٦]؟. وعملاً بمنهجه في الانتشار النابذ للسيف سأل مسيلمة اجتماعاً بسجاح فأجابته إليه، ولم يصلنا من الاجتماع التاريخي بقرار من المؤسّسة الإسلاميّة المنتصرة في ما بعد ما دام المنتصر هو الذي يمحو وهو الذي يكتب سوى أنّ النبيّة سجاح خرجت من الاجتماع وهي تلهج بنبوّة مسلمة ثمّ لتتزوّجه، ولم تذكر المؤسّسة ذاتها أنّها تزوّجته إنّما مرّة إعجاباً بقوّة شخصيّة مسيلمة وعظيم ما سمعته منه ومرّة توحيداً للجهود المشتركة لإحداث نوعيّة في دين العرب سلماً (وهو منهج مسيلمة) كمقدّمة لإحداث "التغيير الاجتماعي" المطلوب والمنشود.

إنّ هذا النصّ الذي يختزل المرأة في الفرج، ويختزل الرجل في الذكر أو أنّه "فقط زوج" والغاية هي "الاستمراريّة في استنساخ الشكل وتقول سجاح مع ذلك، وهي رأس قومها وقائدتهم وعقلهم المفكّر ونبيّتهم ورايتهم على العرب، والتي تمكّنت بقوّة شخصيّتها وتأثيرها من كسب أحياء انتشرت فيها النصرانيّة، حال سماعها هذا النصّ (أشهد أنّك نبي)[٢٧] وإصرار المؤسّسة الإسلاميّة على هذه الرواية الموضوعة قطعاً مثل رواية صفة "مسيلمة الكذّاب" الموضوعة أيضاً، ليس إصراراً على عدم احترام تدوين التاريخ والاستهانة بشخصيتين مؤثّرتين مثل مسيلمة وسجاح وحسب بل أيضاً تعبّر عن عدم احترام واستهانة "اتّجاه القارئ المسلم والإصرار على اعتباره ساذجاً بلا عقل حين يتقبّل مثل تلك التّرهات.

فهل كان مسيلمة عابثاً وهو يدفعُ الآلاف المؤلفة من قومه إلى أتون الحرب، وهل كانت سجاح عابثة كل همها أن تجد رجلاً يتزوجها؟ لعلها لم تجد في قومها نبياً يكون كفؤاً لها فبحثت عن مسيلمة حتى وجدت كفئها! أن الوضع جدٌ ظاهر في كل ما يتصل بأمر هذه المعارضات التي لا تصمد أمام التحقيق العلمي والتأمل الدقيق.

ثمة ملحظٌ في هذا النص ففيه تفوح رائحة الهذيان والهذر المبتذل، وكأنّه أُعد لمفاكهة المُعربدين في مجالس البطالين، كيف ترضى سجاح أن يكون وصفها بهذه الطريقة الفجّة التي تنم عن وضعٍ واضحة معالمه، سخفٍ لا يتحمله ذو عقل.

لو نظرنا للنص من الزاوية التفكيكية فأنّه ليس من مهمة المجسّة التفكيكية إعادة بناء النص، وإنّما مهمتها تقوم فقط على فضح نظام القواعد الذي أستنها النص لنفسه، وذلك

بالكشف عن لحظة هامشية فاضحة تعمل على تآكل ما بدا به النص وكأنه نظام متماسك. هذه الصفة تؤكد تلك الآراء بأن هذا الفضح هو ليس إعادة بناء للنص، والنص المتقدم غارق باللحظات الهامشية التي لا تحتاج الى أدنى تأمل لكشفه، أنّما هي مجسّات نابضة بالتواء لغوي مغري.

وبما أنَّ القراءة التفكيكية تهدف إلى إيجاد تصدع وشرخ بين ما يصرح به النّص وما يخفيه أي بين ما يقال ومالم يتم التصريح به.فأن النسق المضمر في هذا النص هي دعوة للتهتك والانتشاء المشوب بالفجور،وقد أباحت المؤسّسة الإسلاميّة تكريس هذا النوع من الخزعبلات كونها تصب في مسار الحرب الباردة التي تسعى لتقويض سلطة مسيلمة التي أصبح حدّ السيف غير كافٍ وحده لقلعها من جذورها.

٣- النص الثالث (الحبلى):

(الم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاق وحشى)[٢٨].

يُوحي النّسق المضمر في هذا النّص أن هذا النص يساوق قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[٢٩]، ولم تنسب هذه المعارضة في أكثر الكتب الى مسيلمة، ونسبها الطبري لمسيلمة[٣٠]، وقال إنّه قالها في حضرة سجاح ومما قال في حضرتها (إن الله خلق النساء.... وجعل الرجال لهن أزواجا...) فلما أتم هذه الكلمة على أفحش ما تتم به الكلمات قالت له: أشهد أنك نبي! ولا أدرى لماذا اقتصر الوحى في حضرة سجاح على ما يتعلق بالزوج والنكاح والحمل والوضع؟

ونَقَدَ الخطابي هذا النص فقال: (إنّ أول ما غلط فيه هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام في موضع كلمة الأنعام حين قال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى. وإنَّما تستعمل هذه اللفظة في العقوبات ونحوها كقوله: (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) وإنّما وجه الكلام مما رامه من المعنى أن يقول: ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى... وكيف أنعم عليها، أو نحو هذا من الكلام الذى يجرى مجرى الامتنان والأنعام)[٣١].

يمكن القول إنَّ النص إثارة للسؤال، وتحريك التراكم المعرفي، يحفز المشاعر وينتصر على الثوابت فيه، تقوم صياغته في بنية فهمه على متغيرات القراءة التي تخلق فيها لجديد،

وتزيح عنه الثوابت لكشف المكونات فيه، وهو ما يجعل القارئ يتجدد ويتغير، بتغير القراءات، وشيء طبيعي أن تتغير القراءة نحو "تطوير" الفهم، في لحظات الكشف والرؤيا.

والسؤال - هنا - الذي يثيره هذا النص أن صاحبه لا يعرف معنى ما يتفوه به، فعلماء التشريح يقولون أن الوليد الا يخرج من الجلد الأسفل بعد الجلد الاعلى الذي اسماه ب(الصفاق) انّما يخرج بين الصلب والترائب كما نطق بذلك التنزيل[٣٢].

٤- النص الرابع (الشاة):

(والشاة والوانها، وأعجبها السود والوانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنَّه لعجب محض، وقد حرم المذق فما لكم لا تمجعون)[٣٣].

في هذا النص صورة من التعجب السّمج، فالاستهلال بألوان الضأن والعجب يبدأ بالأسود منها، ثم تحصل صورة متضادة مثيرة وهي: (الشاة السوداء × اللبن الأبيض) ثم يوصف هذا العجب بأنّه محض أي خالص لا تشوبه شائبة، ثم ينتقل إلى المذق، وهو مزج اللبن بالماء، والمجع: اللبن يشرب على التمر، أو تمر يعجن باللبن[٣٤]، ولعمر الله ما ندري أكان هذا القرآن ينزل على قلبِ مسيلمة أو على معدته.. أو كان بين قوم جياع فتأثيره أن تسيل لعابهم، فيستمعون إليه كأنّ على رؤوسهم الطير. كل تلك البصمات لتدلّل أنّها من صنع الرواة والقصاصين.. وجاء هذا يتساوق مع نصوص الثرد والعجن والطحن، وكأنَّها أُنزلت من قالب واحد تتعاوره معالم الوضع، إذ نُسج من منوال واحد، وشَرِب من شرعة واحدة.

إنّ تلمس هذا النص على وفق التحليلات النصية في المشروع التفكيكي هو محال، وهناك تفسيراتٌ مختلفة للنصوص لكنها لا تستند إلى حقائق نهائية، ودور التحليل في هذا المشروع هو تحريك تفسيرات متعددة في قراءة نص معين، فلعلَّ منشئ النص أراد أن يخفي ملامح اختلاقه للنص؛ ليؤسس أن مشهد النّص ينبغي أن يكون في بيئة حدود فكرها ومبلغ علمها الشواخص المادية (الشاة السوداء+ اللبن+ المذق + والمجع)، فالمشهد محبوك بخيوط معرفية متسقة مع البعد الزمكاني الذي أنجب هذا النص.

وهذا النص فيه تكرار لا مبرر له، فقد أقسم بالشاء وألوانها ثم بالشاء السوداء، وكذلك أقسم الألبان ثم باللبن الأبيض، وربما تحذلق بعض العارفين فقال، أن مقصده

بالشاة السوداء تخصيص بعد تعميم، وكذلك اللبن الأبيض، ولو عجبت من وصف اللبن بالأبيض لقال لك من يجد لكل سؤال جواباً أنه نعت كاشف، ولكن للتخصيص بعد التعميم في كلام العرب الصميم مغزى، وللنعت الكاشف سر، ولا أرى هنا مغزى ولا سراً. أما الكلمة الأخيرة فهي أشبه بأنَّ تكون موضع الفكاهة، أو مركز الدائرة من السورة! فما خطب المجمع؟ وكيف عزف قوم مسيلمة عنه وتركوه؟ حتى جعل يتعجب في حسرة من تركهم إياه ويقسم بأشد الأيمان غلظا على أنَّه لا عيب فيه، وماذا ينقص نبوته أن يترك قومه المجع! انَّ المجع هو أكل التمر ثم شرب اللبن عليه، أو عجن التمر باللبن، وهو طعام ما أظن العرب تركوه وقد أمكنهم، وهو ـ ولا شك أنّه أفضل من المذق (خلط اللبن بالماء) فكيف اعتلت طبائع هؤلاء الناس وانحرفت أمزجتهم فحرموا المجع، وحللوا المذق فجاء مسيلمة برسالته ليردهم عن هذا الوضع المقلوب؟! ولا غرو فالرجل كما يقول أرسل في محقرات الأمور! ولكن كيف يعفى أتباعه من تعاليم الاسلام، ويجرم عليهم خلط اللبن بالماء؟! ويشغل باله التحريم حتى يوحى إليه فيه بقرآن يبتدئ بالقسم وينتهى بهذا الحكم العظيم.!

إنَّ أيّ النصّ، بما فيه من رصيد معرفي، قابل للأخذ والرد، والزيادة والحذف، ولا يمكن الحطّ من قيمته، أو التقليل من شأنه، ومن أهميته، أو إنكار وجوده، للإعلاء من شأن القارئ وحدهُ، فنحن نستطيعُ أنْ نتصور قارئًا بلا نص، ولكن لا يمكن أنْ نتصوّر نصًا بلا قارئ، الا أن مثل هذه النص لم تحقق فيه أدنى مستويات القراءة، فهو ممجوج لا يؤبه به.

٥- النص الخامس (الفيل):

(الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ خرطومٌ طَوِيلٌ، إِنّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ رَبّنَا الْجَلِيلِ الْفِيلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنَبٌ وَبِيلٌ، وَخُرْطُومٌ طَوِيلٌ)[٣٥].

أما قول مسيلمة (الفيل وما أدراك الفيل) فعلّق عليه الخطابي بالقول: (أما علمت يا عاجز أنَّ مثل هذه الفاتحة إنّما تجعل مقدمةً لأمر عظيم الشأن فأين هو من الوصف المتناهي الغاية في معناه كقول الله تعالى (الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة).... فذكر يوم القيامة وأتبعها أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة.... وأنت علقت على هذا القول

على دابة يدركها البصر في مدى اللحظة ويحيط بمعانيها العلم في اليسير من مدة الفكر ثم اقتصرت من عظيم ما فيه من العجب على ذكر المشفر والذنب)[٣٦].

والحق أنّ هذا النص الذي نُسب لمسيلمة لا يحوي اي لمسة بلاغية او بيانية فهو ابتدأ بمقدمة مزلزلة، ثم كرر الكلام من دون مناسبة او فذلكة ملفتة، لينهي كلامه بذنب الفيل وخرطومه، ليترك النص مفتوحاً من غير علةٍ تسوغه وتنميق الفاظ سجعية، جاءت تهكمية، لم تخرج من رجل ذي عقل.

موقف ونتيجة من مسيلمة الكذاب:

حاولت المؤسسة الدينية بعد وفاة الرسول الأعظم ﷺ المتمثلة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه محاربة الحركات المعارضة للسلطة، وكان جلُّ تلك الحركات التي ظهرت لا تريد الدوران في فلك السلطة الحاكمة. قال أبو جعفر الطوسي(ت٤٦٠هـ) في المبسوط: (أهل الردة بعد رسول الله ﷺضربان: منهم قوم كفروا بعد إسلامهم، مثل مسيلمة وطليحة والعنسي وأصحابهم، وكانوا مرتدين بالخروج من الملّة بلا خلاف. والضرب الثاني: قوم منعوا الزكاة مع مقامهم على الإسلام وتمسّكهم به، فسُمّوا كلهم أهل الردة، وهؤلاء ليسوا أهل ردة عندنا وعند الأكثر)[٣٧].

وتشكل حركة مانعي الزكاة القطب الأعظم من تلك الحركات، وكان هنالك تردد في مقاتلتهم؛ لأنَّهم مسلمون، الا انَّهم لا يعطون الزكاة، فحصلت بلبلةً في صفوف الإسلاميين، وكان جناحُ السلطة يعاني من إرهاصات السقيفة، فقلوب الأنصار لا زالت تهفو إلى السلطة، وأُخرجوا من الأمر خاليي الوفاض، وبدأت حركات هنا وهناك تمتنع عن أداء فروض الطاعة للخليفة، فاستعملت السلطة القوة لتقويض تلك الحركات وحصل ما حصل، وكان من ضمن حركات المعارضة أدعياء النبوة وممثلهم الأشهر مسيلمة، فقام الإعلام الإسلامي إصباغ صفة المروق والردة على كل الحركات مما دعا السلطات لاستعمال التسقيط الإعلامي وتوهين الخصوم بسفاهات وترهات لا أصل لها لتقليل من شأنهم ولتسويق حراك الجهاد بشكل عام، فكانت معركة إعلامية استعملت فيها الأمور المشروعة وغير المشروعة فكانت تلك الإسقاطات نالت من مسيلمة فأصبح هزواً على مرّ العصور، أقول، لا يعني قولي هذا دفاعاً عن مسيلمة فهو مدعي كذاب ولكن ما نُسب إليه خلقته

الماكنة الإعلاميّة الإسلاميّة. لكن استغلال شعار الردة لتصفية المعارضين للسقيفة لا ينفي وجود حركة ردة في قبائل العرب، فقد تصوّر عددٌ من القبائل بعد وفاة النبي ﷺ أنَّ نبوّة قريش انتهت بوفاته ﷺ، وجاءت الفرصة لها لتعلن نبوّتها، وتتحرك وتحقق مكاسب، كما حقّقت قريش من نبوّتها!

وجاء في وصيّة أبي بكر لخالد ابن الوليد وقد توجّه لبني حنيفة بعد انتصاره على بني أسد وعطفان ما يشير إلى الحثّ على هذه الإبادة وقال له يوصيه: (فإذا لقيت القوم فأعدّ للأمور أقرانها، فإن أظفرك الله بهم فإيّاك والإبقاء عليهم، أجهز على جريحهم واطلب مدبرهم واحمل أسيرهم على السيف، وإيّاك أنْ تخالف أمري، والسلام)[٣٨].

وقد يكون هنالك احتمال وضع تلك النصوص للتفكُّه والسّمر، أو وضعت لغاية دينية وهي تأكيد إعجاز القرآن الكريم عندما تُقارن هذه المفتريات إلى الآيات الباهرات في الكتاب العزيز. مع أنَّ إعجاز القرآن ليس في حاجة إلى مثل هذه بعدما سكت فحول البلاغة عن معارضته.

وممّا يثير الشك في كون مسيلمة قائل تلك الجمل التافهة، ما أُثر عنه من بعض الكلمات التي هي في البلاغة بمكان عال، كقوله عندما اجتمع مع سجاح التميمية (هل لكِ أن اتزوّجك فآكل بقومي وقومك العرب)[٣٩]، فإن هذه الكلمة تدلّ على مكانة الرجل في الفصاحة وجميل التأتي لما يريد. فخيّل لسجاح أنّه سيأكل بقومه وقزمك العرب. وهل كانت تقصد سجاح غير هذا؟ وهل كان يقصد من اتبعوها إلا أكل العرب والاستيلاء عليهم؟ فإذا قارنّا بين كلمته هذه، وما عزي إليه من المعارضات، وجدنا فارقاً كبيراً بينهما في الأسلوب والروح، فهذه الكلمة صادرة عن نفس جادة حازمة تتطلب أمراً عظيماً، وأمّا ما نُسب إليه فصادر من نفس ماجنة عابثة، لا تدرك ما وراء المغامرة من مخاطر.

وهنالك كلمة أخرى نسبت إليه حين استحرّ لقتل في قومه، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل مكان، وقد سأله قومه ما وعد به، فقال (أما الدين فلا دين، قاتلوا عن أحسابكم)[٤٠]. فأي إيجاز، وأي قوة، وأي إيحاء وتحميس أقوى من هذا: قاتلوا عن أحسابكم؟ والمنصف لا يشك في أن هذه الكلمات الموجزة ليس صاحب هذه المعارضات الركيكة المُسهبة[٤١].

الملخص:

تُعدُّ نصوص مسيلمة الكّذاب النّثرية مادةً خصبةً لإعمال قراءة النصوص على وفق المناهج الحديثة، ولاسيما المنهج التفكيكي الذي يستطيع النفاذ إلى فضاءات متعددة، ولا يلتزم بمنهج بعينه، فكانت قراءة نصوص مسيلمة تكشف أنّها وضعت في نسق يوحي بعدم المبالاة بالمعنى، وغايته التنميق اللفظي، ويضاف إلى ذلك أنَّ سياقات المقام لا تساعد على صدور مثل هذه النصوص من نفس مسيلمة، فضلاً عن استعمال الماكنة الإعلاميّة الإسلاميّة هذا الضرب من الكلام في حربها ضد المرتدين لإجهاض حركتهم نفسياً، ويُحتمل أنّها وُضعت للتفكّه وأهل السُّمر، ولا يبعد أنَّها وُضعت لغاية دينية وهي تأكيد إعجاز القرآن الكريم حين تُقارن هذه النّصوص بالآيات الباهرات في الكتاب العزيز.

Abstract

The texts Musaylimah liar prose fertile material for the realization of reading texts according to modern curricula، particularly deconstructive approach that can access multiple spaces، not committed to a particular approach، was reading texts Musaylimah reveal that it has developed in a format that suggests indifference sense، than stylization verbal، and added to the The place contexts are not conducive to the issuance of such texts from the same Musaylimah، as well as the use of the media machine Islamic this kind of speech in its war against the apostates to abortion movement psychologically، and potentially put it to decipher and the people of the hills، nor is it put religious up to a confirmed miracle of Quran Karim While these texts compare verses Behrat in the Holy Book.

هوامش البحث

(١) مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد قصاب، ١٨٢.

(٢) ينظر: القراءة من موت المؤلف إلى ميلاد القارئ، عبد الوهاب منصور:٧١-٧٣.

(٣) ينظر فلسفة التفكيك عند دريدا، د: محمد سالم:١

(٤) ينظر فلسفة التفكيك عند دريدا، د، محمد سالم:١

(٥) القول الفلسفي للحداثة، فاطمة الجيوشي: ٢٩٣.

(٦) قواعد الفن، إبراهيم فتحي: ٣٦٥.

(٧) عودة أخرى للميثولوجيا البيضاء، ت: رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، العدد ١٠٦ - ١٠٧ لسنة ٢٠٠١:٦٢.

(٨) ينظر: المذاهب النقديّة لحديثة، مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي: ٣١٨.

(٩) ينظر: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، خليل إبراهيم محمود:١١٠.

(١٠) فاعلية القارئ في إنتاج النص، درويش عبد الكريم:٣٤.

(١١) المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، محمد شبل، الكومي: تقديم: محمد، عناني: ٢٠٠٤، ص:٣١٥.

(١٢) فاعلية القارئ في إنتاج النّص، المرايا اللامتناهية، عبد الكريم، درويش مجلة الكرمل،: ٢٠٩.

(١٣) فاعلية القارئ في إنتاج النّص، عبد الكريم، درويش المرايا اللامتناهية، مجلة الكرمل،:٢٠٩.

(١٤) سيرة ابن هشام:٢٣٣/٤.

(١٥) الحيوان: ٥٠٣/٥.

(١٦) الحيوان: ٥٠٣/٥.

(١٧) بيان إعجاز القرآن: ١٩.

(١٨) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٦٠/١.

(١٩) الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، محمد الجواهري، القاهرة: دار الكتاب للتوزيع، ١٩٧٨م، ٨٣- ٨٧.

(٢٠) سورة لقمان:٥-٧.

(٢١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٥-٦، وله كلامٌ تفصيليٌ في إثبات إعجاز القرآن، ذكره في رسالته (حُجج النبوة) ١٤٤ وما بعدها.

(٢٢) إعجاز لقرآن والبلاغة النبوية:" ١٢٨.

(٢٣) تاريخ الطبري: ٢٧٠/٢.

(٢٤) نفسه: ٢٧٠/٢.

(٢٥) نفسه: ٢٧١/٢.

(٢٦) البداية والنهاية، ابن كثير:٦٤/٥.

(٢٦) نفسه: ٦٤/٥.

(٢٧) البداية والنهاية، ابن كثير:٦٧/٥.

(٢٨) سورة الفيل:١.

(٢٩) ينظر: تاريخ الطبري: ٢٧١/٢.

(٣٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٦٩.
(٣١) نفسه: ٦٩.
(٣٢) تاريخ الطبري: ٥٠٤/٢.
(٣٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ١٢٩.
(٣٤) غاية المرام في علم الكلام، الآمدي: ٣٤٤.
(٣٥) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٦٩.
(٣٦) المبسوط في الخلاف، الطوسي:٤٤٣/٥.
(٣٧) مختصر سيرة الرسول: ١٨٦.
(٣٨) البداية والنهاية. ابن كثير: ٤٥٠/٩.
(٣٩) تاريخ الطبري: ٤٩٩/٢.
(٤٠) ينظر: رسالة الإسلام، علي المعماري: ٥٦.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، ط٣، دار الأميرة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٨م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ١٩٩٩.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، ط٥، دار اليمامة، دمشق- سوريا. ١٩٩٧م.
- البداية والنهاية، اسماعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير (ت٧٧٤٤ه)، ط٢،مكتبة المعارف، بيروت- لبنان، ١٩٨٩م.
- تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطّبري (ت٣١٠هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٦م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنيّة والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمّد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف، القاهرة - مصر، ١٩٧٨م.

- الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٤١٦هـ.

- الدراسة العلمية للمتعقدات الشعبية، محمد الجوهري،ط١، دار الكتاب، القاهرة - مصر، ١٩٧٨م.

- رسائل الجاحظ،: لأبي عمرو الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار ابن الأثير، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨م.

- سيرة ابن هشام، تحقيق: نجيب متولي، مطبعة الصفوة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م.

- عودة أخرى للميثولوجيا البيضاء، ت: رشاد عبد القادر، مجلة الآداب الأجنبية، العدد ١٠٦ - ١٠٧ لسنة ٢٠٠١.

- غاية المرام في علم الكلام، سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، ط١، المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة - مصر، ١٣٩١.

- فلسفة التفكيك عند دريدا، د. محمد سالم، مطبعة الرشاد، بيروت- لبنان، ٢٠١٢م.

- فاعلية القارئ في إنتاج النّص، المرايا اللامتناهية، عبد الكريم، درويش مجلة الكرمل، ٢٠٠٠م.

- القراءة من موت المؤلف إلى ميلاد القارئ، عبد الوهاب منصور، دار القلم. بيروت- لبنان. ٢٠١٤م.

- قواعد الفن، إبراهيم فتحي، المركز العربية للدراسات والبحوث، مصر، ٢٠٠٩م.

- المبسوط في الخلاف: لابي جعفر محمد بن لحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، ط١، مؤسسة نشر المدرسين، قم، ايران. ٢٠١١م.

- مختصر سيرة الرسول، د. قالي عبد الرحمن، دار غياث الدين، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م.

- المذاهب النقدية الحديثة، مدخل فلسفي محمد شبل الكومي، الهيأة المصرية للكتاب. القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.

- مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد القصاب، دار تراثنا، دمشق- سوريا، ٢٠١١م.

- النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، خليل إبراهيم محمود، دار القلم. بيروت - لبنان. ٢٠١٣م.